المشرق

الايمان والعلم أخوان لا يختلفان

بقلم حضرة الخوري يوسف الدبسي

من البلاء علينا في هذا الوطن التهافت على حب التقليد والتخلق باخلاق غيرنا دون روية واعمال فكرة . ولا يقتصر هذا الداء الوبيل على البعض ممن يدّعون العلم والمعرفة بل يتناول ايضاً كثيراً من الجهلة والسذج الذين يُقلعون عن مذاهب الحياء ويجاهرون بضلالهم مفاخرين علينا بما اصابوهُ باكتشافهم الجديد وسعة مداركهم واستقراء مخبآت العلم وتمحيص حقائقه مما يتطلبهُ على زعمهم الشدن العصري . ومن يُقنعهم ليقصروا عن باطلهم او يردعهم ليتزعوا عن جهالتهم ؟

ان من نتائج الفلسفة المستحدثة اضاليل نشرها بعض الفلاسفة المارقين في الامصار الغربية منها : ادّعاؤهم ان الايمان والعلم ضدّان لا يأتلفان . وما لبثت هذه التعاليم حتى تلقفها بعض ابناء هذه البلاد وشرعوا يحاربوننا بها رغماً عن كساد هذه البضاعة في مصادرها وتفنيدها بما ردّ حجّة حامليها عليهم . ولا يقف اصحابنا عند هذا الحدّ من هُيامهم في أودية ضلالهم وركوبهم متن غوايتهم بل يحاولون بث هذه المبادئ القتالة في نفوس العامة وهم لذلك يسلكون اليها كلّ سبيل ولو عقلوا وطالعوا ردود علمائنا وتآليفهم التي ليس وراءها مذهبٌ لطالب او جروا على منهاج اجدادهم وآبائهم لكانوا انصفونا وكفوا البلاد شرَّ هذه الاضاليل . على اني لا اتوخى بهذه المقالة ردّ زعمهم او تخطئة وهمهم او الدفاع عن تعاليم الدين فليس الدين في حاجة لمن يتحرّى الدفاع عنه . بل ما حداني لكتابة هذه الأسطر هو مؤاخذةُ بعض

ابناء هذا الوطن الذين يتهافتون على ما يقذفه البحر الينا من بضاعة كسدت في محلها كنها ولم يَرُجْ سوق نفاقها سوى عند اهل النفاق وذكرُ بعض أقطاب اهل العلم وما قرَّروهُ بشأن هذه الاضاليل التي يعدّها بعض شبان هذا العصر من اهمّ ما اكتشفه العلم الحديث الان عبرةً لمن يعقلون وذكرى لمن يفقهون

﴿جان باتيست دياس﴾ (J. B. Dumas) هو احد ائمة الجيل الماضي كيماوي شهير ومرجع اكتشافات عديدة . أنس مدرسة الصنائع والفنون الشهيرة بباريس . وعندما أُدرج بسلك اعضاء جمعية العلوم الافرنسية (الاكادمية) صرّح جهارًا بايمانه بخلود النفس وبمعتقده المسيحي . ولم يكن ينبي قطّ عن ممارسة الفرائض الدينية باوقاتها . ومن تصريحه امام خاصة الناس وعامّتهم « انَّ الايمان والعلم اخوان لا يختلفان » مقدماً للجميع افضل مثل على تمسُّكه بعروة الدين الوثقى وسموّ آدابه . وكثيرًا ما كان يردّد على مسمع ائمة عصره « ان حقائق الوحي تزداد رسوخاً كلما ازدادت مخيّلتنا علماً » . توفي دياس وقد ناهز العشرين بعد ان حصل على جميع المساعدات الروحية (١٨٠٠–١٨٨٤)

افلا يخجل اصحابنا اذاً ممن ادّعوا العلم ويخفقون من غلوائهم ويُقصرون عن القول « هذا التعليم ينافي العلم : وهذه القضية لا يدركها عقلي » ؟؟

﴿كوشي﴾ (Cauchy) هو فيلسوف ورياضي معاً اشتهر بابحاثه الخطيرة ونظرياته التي ادّت للعلوم اجلّ خدمة . اوغسطين كوشي كان يتعزز بمذهبه الكاثوليكي ويُدلّ به مفتخرًا . فليرفع اصحابنا حجاب سمعهم لما يقول لعلّهم يعتبرون فيبصرون رشدهم : « كم اراني سعيدًا ومحظوظاً معاً ان اكون مسيحيًا اعتقد بيسوع المسيح انه اله وبخلود النفس اسوة بغيري من افاضل قومهم وعمدتهم نظير تيكو براهي(١ وفرنسوا باكون (٢ وكوبرنيك (٣ ونيوتون (٤ وفرمات (٥ وبسكال (٦ ولابنتس (٧

---

١) (Tycho Brahé) هو عالم فلكي شهير اخترع امورًا كثيرة وله تآليف يُرجع اليها بمشاكل هذا العلم (١٥٤٦–١٦٠١)

٢) (François Bacon) الوزير الانكليزي هو مرجع فلاسفة عصره ولم يقل قوله الذي ذهب مثلًا « الإلمام بالعلوم (اي معرفتها القليلة) تُقصي عن الله والتبحّر فيها يُهدي اليه » الّا بعد ابحاثه الطويلة وتضلّعه من العلوم . لباكون مقالات شائقة بحقيقة الدين المسيحي وصحة الاناجيل (١٥٦١–١٦٢٦) ٣) (Copernic) هو كاهن بولوني اشتهر بعلم الفلك واكتشف امورًا

وجيمالدي (١ واولر (٢ وبويرهاف (٣ وبويل (٤ ولوك (٥ واديسون (٦ وهالر (٧ وكثيرين غيرهم ممّن امتازوا بعلومهم الرياضية والفلسفية والطبيعية . كما اني افتخر بكوني كاثوليكيًّا أومن بما تعلمهُ الكنيسة المقدسة مثل غاليلاي (٨

كثيرة لم يسبقهُ اليها احد . وبيَّن قبل غليلاي انَّ ارضنا تدور حول الشمس ولم يتعرَّض لهُ احد من ارباب الدين كما تعرَّضوا لغليلاي لنُضولهِ (١٤٧٣–١٥٤٣)

٤) (Isaac Newton) هو اسحق نيوتون الفيلسوف الانكليزي اشتهر بعلم الفلسفة والطبيعيات والفلك وهو اول من اكتشف نواميس الجاذبية والثاقل والعناصر التي يتألف منها النور. وللمذكور تأليفٌ بحقيقة الاناجيل وصحتها ومطابقتها لم يُنسَج على منواله (١٦٤٢–١٧٢٧)

٥) (P. Fermat) هو رياضي اكتشف امورًا عديدة بحساباتهِ الدقيقة بما يخصّ علم الهيئة (١٦٠١–١٦٦٩) ٦) (Pascal) هو فيلسوف وعالم طبيعي وكاتب بليغ له خطرات افكار شائقة عن الدين المسيحي (١٦٢٣–١٦٦٢)

٧) (Leibniz) هو عالم وفيلسوف المانيّ وهو ايضًا لاهوتيّ اتقن علم الدين وقد سعى مع بوسويه الخطيب المشهور ليُعيد الكنيسة البروتستانية الى الكنيسة الكاثوليكية (١٦٤٦–١٧١٦)

١) (Grimaldi) فيلسوف ايطالي (١٦٢٨–١٦٦٣)

٢) (Euler) رياضي شهير يُعد من الطبقة الاولى بعلومهِ الفلكية والكيماوية وله ردود شائقة على الكفرة والملحدين وكتابات نفيسة عن الحقّ الجلّي التي قدمها الدين المسيحي للعائلة البشرية (١٧٠٧–١٧٨٣) ٣) (Boerhaave) هو طبيب وكيماوي هولندي الجنس لهُ عدَّة تآليف بالطب والكيميا وكان يحسن اللغات الشرقيَّة كالكلدانية والعبرانية . وله رسائل مطوَّلة دافع بها عن الكتاب المقدس في العهدين (١٦٦٨–١٧٣٨)

٤) روبار بويل (Robert Boyle) هو انكليزي الجنس اشتهر بعلومهِ الطبيعية والكيماوية ولهُ تآليف دينية شائقة دافع بها عن حقيقة الوحي (١٦٢٦–١٦٩١)

٥) (John Locke) هو فيلسوف انكليزي من جملة تآليفه حقيقة الدين المسيحي (١٦٣٢–١٧٠٤) ٦) (Joseph Addison) هو كاتب شهير انكليزي الجنس ومن تآليفهِ الخاصة باثبات الدين المسيحي

٧) (Albert de Haller) هو جرّاح وعالم نباتي ولد في برن عاصمة سويسرة لهُ كتابات بليغة افحم بها المدبي الايمان (١٧٠٨–١٧٧٧)

٨) (Galilée) هو اشهر علماء عصرهِ في الرياضيات وعلم الطبيعة والفلك وُلد في بيزا من اعمال ايطالية اخترع واكتشف امورًا عديدة : الترمومتر وميزانًا لمعرفة الثقل النوعي للاجسام واصطنع اوَّل نظَّارة فلكية . وحذا حذو كوبرنيك في القول ان الشمس هي مركز عالم السيارات وان الارض تدور حول الشمس كباقي السيارات ولامورُ لتعرُّضهِ لشرح الكتاب المقدَّس (اطلب المشرق ٩ [١٩٠٦] :١٧٨) مات فقيد البصر (١٦٤٢)

وكبلر (١ وبسكوفيش (٢ والأثري الاب ديلاتر من الآباء البيض والاب شيل الدومنيكي الضليع بالعلوم الاشورية والاستاذ براتلي مخترع التلغراف اللاسلكي والشعراء المفلقون دانتي وتاسو وكورنايل وراسين وبوالو والادباء شاتوبريان ولابرويار وجرديل (٣ وساكي (٤ والخطباء بوسويه وفنيلون وبوردالو وماسيلون والوف غيرهم .

«وكم أراني سعيداً ان أنتمي بهدى ابناء الكنيسة من سراة ووجهاء وملوك وامراء مثل كارلوس الكبير (Charlemagne) وغودفريد (Godefroid) وتانكراد (Tancrède) وبايار (Bayard) ودي گوكلين (Du Guesclin) وڤوبان (Vauban) وڤيلار (Villars) وكاتينا (Catinat) والقديس لويس التاسع وهنري الرابع ولويس الرابع عشر الخ ... هذا ما كتبهُ كوشي موجزاً

وماذا نقول عن ذلك البطل المغوار والملك العظيم الشان (نابوليون بوناپرت) . ومن ينكر عليه تمسُّكه بدين اجداده على انه وان كان في ابان عظمته وسكرة انتصاره نسي ردهاً من الحين ممارسة واجبات دينه لكنه كان أبعدَ من ان يكفر به او يرتاب بمعتقدات ايمانه . فكان ثابت العقيدة صحيح الداخلة وقد صرَّح على مسمع الجميع بمناخرته بدين اجداده قائلاً : « افتخر بكوني مسيحيًا وابن الكنيسة الكاثوليكية وكم يسوءني ان ارى ابن اخي يذهب غير مذهبنا ويجري على غير منهاجنا . وعندي ان افضل خدمة قدَّمتُها لفرنسة هي احياء الدين الكاثوليكي وإعلاء منارهِ فيها . هو الدين لا سُرية يدفع عنها كل ضرر لا سبيل لها للتخلص منه الَّا به ... »

وعندما كان اسيرًا في جزيرة القديسة هيلانة لم يكن ينقطع عن التأمل ملياً في

---

١) (Jean Képler) عالم فلكي هو اول من وضع نظريات محكمة في السيارة المريخ والنواميس المعروفة بنواميس كبلر التي بواسطتها توفق العلامة نيوتون الى اكتشاف مبدإ الجاذبية (١٥٧١ — ١٦٣٠) ٢) (Boscovich) هو احد الاباء اليسوعيين ايطالي الجنس عالم رياضي وهو اول من عُني بنشر فلسفة نيوتون في وطنه (١٧١١ — ١٧٨٧)

٣) (Gerdil) هو احد الكرادلة الشهيرين امتاز بعلومهِ الفلسفية (١٧١٨ — ١٨٠٣)

٤) (Angelo Secchi) هو احد الاباء اليسوعيين اشتهر بعلومهِ الفلكية لهُ كتاب شهير عن الشمس وتركيبها (١٨١٨ — ١٨٧٨)

ما كان يعتقدهُ في صغره وما تعلَّمهُ من مبادئ التعليم المسيحي . فكان يزداد تيقُّناً وتمسكاً بالحقائق الدينية التي لا عزاء ولا سعادة تامة الَّا بها . وكان يتمم فرائضه الدينية بكل احترام ويحضر كل يوم الذبيحة الالهية التي كان يقيمها احد الكهنة الذي استدعاهُ لهذه الغاية . وما كان اشدَّ اعجاب رفقائه في منفاه اذ كان يشرح لهم حقائق الدين المسيحي ويثبتها لهم بالادلَّة الدامغة داحضاً اعتراضات المارقين والجاحدين ببراهين لا تدع مجالاً للشك والريب

وعندما حضرته الوفاة وشعر بمغادرته هذه الدنيا صرف من عنده اطبَّاءه واستدعى كاهنه الاب ڤيڤيالي وقال لهُ : « ابتِ انني ولدتُ كاثوليكيًّا وعشت كاثوليكيًّا وأُريد الآن ان اموت كاثوليكيًّا على دين اجدادي . انني اؤمن بما تؤمن به الكنيسة المقدسة واريد ان اتمم باخلاص وخضوع كل ما تأمرني به واودّ من صميم الفؤاد ان احصل على الاسعافات والمساعدات التقوية التي تقدمها لابنائها عند ساعة الموت »

عندئذٍ تقدم نابوليون من منبر التوبة بكل إخبات وخشوع ثم تناول القربان المقدس ومُسح المسحة الاخيرة ووجههُ يتدفق سروراً ورجاء ثم التفت الى القائد مونتولون الذي كان حاضراً وقال لهُ : « كم اراني سعيداً الآن اذ اتممتُ ما فُرض عليَّ وكم اشتهي ان تنالك هذه المنَّة عند ساعتك الاخيرة . .

« أجل لم اكن امارس شعائر الدين وانا في بسطة مجدي وابهة عرشي لكني لم انكث عهد ايماني ولم اكفر بحرمته . وبالحقيقة كم كان يلذُّ لسمعي قرع النواقيس ومشاهدة الكهنة رُسل السلام على الارض فقد كان ذلك كله يُحدث في قلبي تهيباً وفي نفسي تأثيراً يُحييان فيَّ شواعر الايمان الطاهر . ان الحياء البشري وضعف هذه الطبيعة الساقطة قد طالما تلقاني لأسدل على ذلك حجاب الكتمان امَّا الآن فاني اعترف بهذا التقصير ولا احتجُّ لنفسي منه »

ثم امر ان يُنصب له هيكل في احدى الغرف المجاورة لمخدعه كي يتيسَّر لهُ ان يسجد للقربان الاقدس . وعلى هذا المنوال استأثر الله بالرجل العظيم نابوليون بونابرت وتغمَّده برحمته

﴿ باستور ﴾ (Pasteur) الذي تُقام حاضراً في العالم حفلاتٌ لتذكار مولده

أشهر علماء الجيل الماضي وما تركهُ من الاختراعات والاكتشافات والتآليف في الطب والكيميا وعلم الطبيعة هي حجج ناطقة وادلة ساطعة على ما امتاز بهِ . وليس من يجهل حياة هذا الفيلسوف الفاضل وما كان لهُ من عظم المنزلة باعين كبار اهل العالم. في سنة ١٨٦٨ أُنتخب دكتورًا شرفيًا لمدرسة برنّة الطبية و ١٨٦٩ عضوًا للجمعية الملوكية بلوندرة و ١٨٧٠ عضوًا لمجلس الاعيان و ١٨٧٣ ارسلت له كلية اكسفورد شهادة الملفنة في العلوم و ١٨٨٣ انتُخب كاتب سر اكاديمية العلوم الدائم . وكان سابقًا دُرج عضوًا بسلك جمعية الاكادمي وقد حاز من علامات الشرف والميزة عدة اوسمة من رتبة فارس الى رتبة الصليب الاكبر من جوقة الشرف.

وعندما دخل پاستور جمعية الاكادمي (١٨٨١) القى خطابًا على الاعضاء كان لهُ اشدّ وقع في القلوب واعظم تأثير في النفوس . وقد عدَّ الاعضاء ذلك من پاستور جرأةً فائقة مغايرًا كل المغايرة مبدأ مَن سلفهُ في الجمعية اذ جاهر باعتقاده وجود إله علّة كل العلل .

قد كان هذا العلّامة من اشدّ الناس تمسكًا بعقائده الدينية وقد كان يقول مرارًا : «كلما ازددتُ تعمقًا في العلوم أزدادُ معرفة بعلةٍ أُولى مرجع جميع العلل » . وكثيرًا ما كان يردّد على مسمع الجميع من خاصة الناس وعامتهم : « لم نوجد عبثًا » وعندما حضرته الوفاة استدعى اليه مرشد ضميره الاب يولّنجر واعترف اعترافًا عامًا ومُسح بالزيت المقدس وكان في اثناء احتضاره يرفع كلَّ هنيهة من الزمان الصليب الذي كانت وضعته امرأته بين يديه ويقبله بخشوع رافعًا عينيه الى العلاء . ولد پاستور سنة ١٨٢٢ وتوفي ١٨٩٥

لم ينتشر خبر وفاة هذا الرجل العظيم حتى تسابق كبار اهل العالم من ملوك وعلماء وقواد على تعزية امرأته من حكّام فرنسا وعظمائها وملك بلجيكا والدانيمارك وروسية وايطالية وتركية وعلماء كل أمة

﴿لوفاريار﴾ (Le Verrier) هو عالم فلكي ترك لاهل العلم كثيرًا من ابحاثه النظرية وآرائه الصائبة بما يختص العلوم الفلكية . اكتشف السيارة نبترن (Neptune) سنة ١٨٤٦ ولمّا اقيم مديرًا لمرصد باريس قال : « لا يجوز ان يبقى المرصد محرومًا

من تلك الاداة التي تذكرنا بالعمل العظيم اي عمل الفداء وللحال زين بالصليب صدر قاعة المرصد

ان هذا العلامة لم يكن يقصر قطّ عن ممارسة الفرائض الدينية وهذا ما كان يجاهر به لجمعية الاكادمي التي كان هو من اخصّ اعضائها بقوله : « بالحقيقة لقد كنا بحاجة ماسّة مدة الخمس والثلاثين سنة التي صرفناها بخدمة المرصد لأن تؤيدنا هذه المشاهد البديعة التي اوجدتها الحكمة العلوية بمعتقدنا بخلود النفس وتوطد فينا الايمان بغاية سامية هي مصدر علل هذا الكون وعجائبه . وعليه فليس بدون تأثير وشعور سمعنا بجلستنا الاخيرة تصريحات احد الاعضاء المجيدين الذي اثبت هذه الحقائق كبادئ راهنة للعلم الصحيح »

وعندما أُلقيت في المجمع العلمي مسئلة ترشيح دَرْوين ليكون مراسلاً للاكادمي انتصب لوقاريار واحتجّ على الاعضاء قائلاً : « انكم تهينون الجمعية وصمة لا تمحى » فمنذئذٍ عدل الاعضاء عن تسمية المذكور باجماع الرأي . وعندما شعر بدنوّ ساعته الاخيرة استدعى الكاهن ليمارس الفرائض الدينية ويحصل على المساعدات الروحية وهذا ما كتبه لاحد اصدقائه من اعضاء الجمعية :

صديقي العزيز

لقد كنتَ كاتبني مرارًا لكي اوافق بينما أعتقد وما ينطوي عليه قلبي من الشعور والعواطف علًا بجدا صديقنا الفاضل كوشي . فلتطمئنّ اليّ نفسك فقد حققتُ امانيك مع الشكر على حسن ظنك بي . فمن امس استدعيت كاهن سان سلبس الذي رتب امور نفسي وغدًا يأتيني باوراد الاخير . فكم كنتُ اشتهي ان تكون في باريس لتحضر مناوباتي زاد الراحلين . تحريرًا ٢٥ تموز سنة ١٨٧٢

فما قول اصحابنا دُعاة الفلسفة الكاذبة بهؤلاء العلما فكأنهم لم يُعطوا ما أعطوا هم من حدّة الفؤاد وسرعة الخاطر والعلم الكافي ليجاهروا بكل وقاحة : « الدين والعلم ضدّان لا يجتمعان »

فعندما يأتيك احد ممن تخرجوا في المدارس اللادينية او على علماء ملحدين ويأخذ يتكثّر بلغو مقاله ويتحكم في الجدال مكابرًا بقوله : « ان هذا التعليم ينافي العقل وهذه القضية تعاكس العلم » فقل له : « نحن لنا ايماننا وحسبنا فخرًا ان نكون من

عداد من يؤمنون كامپار (Ampère) وڤولتا (Volta) اشهر علماء الطبيعة وهاوي (Hauy) وروجه (Rougé) وروسي (Rossi) وكوڤيار (Cuvier) وكلود برنار (Claude-Bernard) ولاپلاس (Laplace) ولو شئنا تعداد علماء كل عصر لاحتجنا الى مجلدات . . كما اننا نفتخر ايضاً بان نكون من عداد ذوي الشرف والمجد من كل امة وجنس ولغة كملوك فرنسة والنمسة والمانية وايطالية وروسية وباڤارية وپولونية وهولاندة والدانيمارك وسويسرة وسكسونية وبلغارية واليونان والصرب واميركا الشمالية والجنوبية الذين اتخذوا المعمودية صبغتهم والانجيل كتابهم والصليب لواءهم ولم نسمع احداً من اولئك الرجال العظام من ملوك وعلماء وقواد وامراء منذ ما اشرقت عليهم انوار الدين المسيحي ادّعى ادّعاء ذوي الفلسفة المستحدثة بانّ «الدين والعلم ضدان لا يجتمعان»

ليس الشرف والفخر في اقتفاء اثار اولئك الرجال العظام والعلماء الاعلام الذين اخضعوا اعناقهم لنير الدين وهم اكثر عدداً واوسع علماً واسمى مقاماً من المارقين الذين يرتدون برداء الخيلاء ويتطرون ظهر التيه والعتوّ مدّعين انهم من حضنة العلم واصحاب الذكاء الرائع

على أنا اذا اعتبرنا عدد العلماء الجاحدين وجدناه قليلاً بالنسبة الى المئات من جهابذة اهل العلم والنظر الذين اتخذوا لهم الدين عدّة وشعاراً وتمسّكوا بعقائده المقدسة . فانّا اذا تقصّينا في التدقيق والبحث عن العلماء المعدودين في كل الاجيال والامصار رأينا ان ليس فيهم سوى واحد من ثلاثين او اربعين ترك جادّة الدين وتبع اصحاب الزندقة والكفر . بل نزيد ونقول ان اكثر اولئك المارقين كانوا على بيّنة من امر ضلالهم ولذلك كانوا عند دنوّ ساعتهم الاخيرة يقلعون غالباً عن غيّهم ويرتدّون عن كفرهم ويرجعون الى حضن الديانة التي كانوا نددوا بها في حياتهم

وذلك ما حدث لزعماء المارقين في الاعصر المتأخرة . وڤولتير نفسه الذي عُرف بكفره ومناواته للدين لمّا اثقله المرض استدعى كاهناً ليساعده على الرجوع الى ربه وكان ذلك قبل وفاته بشهر واحد . واذ خفّت وطأة المرض وأمن الخطر عاد الى اطواره الكفرية ولم يلبث ان عاوده الداء . فاستدعى الكاهن ثانية ليعترف له بجرائره وينال الصفح عن كفره كما صرّح عن ذلك طبيبهُ نفسهُ . ولكن عبثاً كان يطلب

ڤولتير مشاهدة الكاهن لأن أعوانه لم يمكنوه من ذلك تقضي عليه . وما حدث لڤولتير قد حدث لاحد تلامذته دلامبرت فان الفلاسفة الكذبة احاطوا به عند احتضاره ولم يتركوه وشأنه . وقد قال احدهم : « لو لم نكن هنا لكان صديقنا هذا حذوَ غيره فرجع الى دين اجداده والتجأ الى الكهنة »

على ان ڤولتير وان كان تظاهر بكفره لكنه كان يعتقد كل الاعتقاد بوجود علّة سامية هي علة كل العلل كما قال شيشرون الخطيب الروماني وعليه كان يعلّم خادمَهُ حقيقة هذه العلة التي تقتصّ من الرذيلة وتُثيب الفضيلة . ففي احد الايام بينما كان يشرح هذه الحقيقة لخادمه دخل عليه تلميذهُ دلامبرت بغتةً فنظر اليه ڤولتير خلسةً واشار اليه أن : أسكت . وبعد ان صرف الخادم من عنده قال لتلميذه : « ومن يؤمّنني من هذا الرجل العريض المنكبين والمفتول الساعدين . ويضمّني واياه سقف واحد سوى اعتقاده بوجود علة سامية تدرك خفايا القلوب وسرائر الضمائر وتعاقب اصحاب الجرائم ؟ »

ومن اغرب ما حدث لديدرو (Diderot) وهو احد فلاسفة الاعصر المتأخرة ومؤلف القاموس العام المشهور (١ انه كان يخلي بابنته الصغيرة ويشرح لها مبادئ التعليم المسيحي . فانذهل منه احد اصحابه الذي كان يؤازرهُ بتأليفه المذكور فقال لهُ ديدرو : « ان محبتي لابنتي تقضي عليَّ ان اضمن راحتها في حياتها وسعادتها في مستقبلها ولا سبيل للحصول على هذه الامنيّة الّا بتعاليم الدين المسيحي ولئن كنّا نسخر من الناس فلا نسخر ممّن لنا »

فماذا تقول يا رعاك الله بهؤلاء العلماء الكذبة الذين يسكرون برائحة العلم وما ظنك في امرهم واي منزلة تنزلهم فيها من الهيئة الاجتماعية اذا قابلتهم بذلك العدد

---

١) ديدرو هو احد كتبة دائرة المعارف الكفرية (Les Encyclopédistes) وهم عصبة من دعاة الفلسفة المتحدثة نشروا بين العامة تأليفهم المشهور بالقاموس العام الذي لم يكن بالواقع سوى مجموع الاضاليل والمثالب ضد الدين . وقد اصبح هذا التأليف مستودع اسلحة الكفر تحرّى به اصحابه اعداء كل عاطفة دينية . وقد كان لديدرو ودلامبرت اليد الطولى في هذا العمل الذي احلّه اعداء الدين اعظم منزلة فاقتنت جميع المكاتب وضاقت اليه طلاب العلوم . ومن عداد الكتبة الذين ساعدوا على تحرير القاموس المنوّه به كان كوندياك وهلفاتيوس وهولباك ودوبانتون وڤولتير ومارمونتيل وروسو ومونتسكيو

العديد من حضنة العلم ومشاهير الامم واصحاب الادمغة الواسعة الذين تراهم في كل زمان ومكان يخضعون لمزاسير الدين ويأتمرون باوامر الاله القدير راضخين اتم الرضوخ لما يفرضه عليهم من الواجبات. ولعمري ماذا حملهم على احناء رؤوسهم امام الدين سوى الحقيقة الدينيَّة السامية التي تجلَّت لهم باجلى مظاهرها

وعبثاً يتستر هؤلاء بشرع الآداب ويدَّعون ان الآداب هي من آثار الانسانية وليست من الله وذلك ليُنكروا وجود الخالق ويطلقوا لذواتهم اعنَّة اميالهم متنصلين من كل تبعة ولم نكن لنعجب من هذه الحركة التي قام بها البعض من طلبة المدارس اللادينية واساتذتها ادعاء ان العلم والايمان ضدان لا يأتلفان فقد تقدَّمهم اناس من قبل على عهد الثورة الافرنسية ١٧٩٣ وحاولوا ان يمحوا اسم الله واثار الدين من القلوب مدَّعين ان الاداب البشرية هي دين الانسان الحقيقي بمعزل عن الله. ومن ثمَّ حدثت تلك الثورة الهائلة على الدين فقتلت عدداً من الاكليروس الاتقياء ونهبت الاديار وافسدت الابكار وابطلت كل شعائر الدين. ونصبت على المذبح بكنيسة نوتردام في باريس صبيَّة عريانة مكللة بالزهور وكان يتقدم اصحاب الدين الجديد امام تلك الابنة السافلة ويسجدون لها. وقد املوا ان يحرِّكوا في قلوب الشعب نوعاً من العبادة الجديدة في التراتيل ذات الخلاعة التي كانت تنشدها المغنيات امام تلك الصبية المفضوحة وان يؤسسوا نوعاً من الاداب بواسطة مواعظ العظماء من الفلاسفة الكفرة ولكن ساء ظنهم وخابت آمالهم وتحققوا عندئذٍ ان دون الله لا يمكن ان توجد آداب حقيقية لان معابدهم وبيوتهم ومدنهم غدت مآخر للزنا ومجامع اللصوص والقتل والسرقة والفجور والسكر. وعندما شاهد روبسبيار الرجل السياسي الشهير وسفَّاك الدماء نتائج الدين الجديد اخذه الرعب كل مأخذ وهرع الى المذبح وتناول القلم بيده وكتب على واجهته: «ان شعب فرنسا يؤمن بوجود خالق السماء والارض وبخلود النفس». فينتج من ثمَّ ان الآداب والدين هما اخوان لا ينفصلان كما انتجنا ان العلم والدين اخوان لا يختلفان

وما احسن ما نجيب اخيراً من يُنكرون علينا بعض عقائدنا من ذوي الاصلاح الموهوم ما اجاب به العلَّامة بوسويه سيدةً بروتستانيَّة كانت تدَّعي العلم والمعرفة. طلبت هذه السيدة مناظرة الاسقف المشار اليه بعقده ومذهبها واذ لم يرَ

بُدًّا من اجابة طلبها بناء على رغبة الكثيرين من الطرفين . ضرب لها موعدًا تأتي به فلم ينقضِ الزمن المحدود حتى تألب بنادي الاسقف جمهور غفير من كبار القوم وعلمائهم . ولمَّا استقرّ بهم المقام طلبت السيدة المذكورة من الاسقف ان يلقي من الاسئلة ما يبدو له . فاحتار الاسقف بامره فكان من جهة يتردّد بصحة اهتدائها وارضاء المتعنّت صعبٌ . ومن جهة اخرى لم يكن يستحسن السكوت بموقفه الحالي - فرفع عينيه الى العلاء وطلب من الله ان يُلهمهُ ما يقول . ثم التفت الى السيدة وناولها مجلدًا كبيرًا من تأليف القديس اغوسطينوس كان على الطاولة امامه . فاخذت المذكورة التأليف الوماً اليه وشرعت تقلّب صفحاته مندهلة من سمو تعاليمه وفصاحته . ثم ناولها مجلدًا آخر من تأليف القديس يوحنا فم الذهب فازدادت به تعجبًا واخذت تطرئ القديسَين المذكورين وتنشر طراز محاسنهما في المجلس معدّدة مآثرهما ومناقبهما . ثم ناولها الخلاصة اللاهوتية للقديس توما فصاحت على الفور : « هؤلاء هم حقيقة عمدة الدين المسيحي يُرجع اليهم في المشاكل ويُستنار برأيهم في المعضلات ونحن معاشر الاصلاح نردّد اسمهم بالتجلّة والاكرام » . وشرعت تتفرّظ وتعلن مفاخر علماء الكنيسة مثل القديس ايرونيموس وغريغوريوس وباسيليوس وترتوليانوس الخ . عندئذٍ التفت اليها بوسويه وقال لها :

« اسألك ايتها السيدة ان تبيّني لي الفرق بين من ذكرت من العلماء كاغوسطينوس وفم الذهب ومار توما وباسيليوس وترتوليانوس وبين زعمائكم فلان التاجر او الصانع او المعلم والسيدة فلانة صاحبة المقام الرفيع وفلانة وضيعة الحسب الخ . . . »

قالت المعترضة : « اغلبتني ايها السيد الجليل بهذه المقابلة فبيهات ان يكون مَن ذكرت نظراء وامثال لاولئك العلماء المحققين الذين تفتخر بهم الامة المسيحية ؟ »

قال بوسويه : « هذا هو الفرق بيننا وبينكم ايتها السيدة نحن نعتمد بما يخص تعاليم ايماننا على تعاليم اغوسطينوس وايرونيموس ويوحنا فم الذهب ومار توما وغيرهم من العلماء الاعلام ممن تفاخر بهم الامة النصرانية جمعاء لاعلى رأي اتفقنا عكس مذهبكم الجديد الذي يُبيح لكل امرئ تفسير الكتاب المقدس وتعاليم الدين بما يبدو له »

فلم تجب السيدة بكلمة لكنها ما أبطأت ان جحدت مذهبها امام السيد المذكور

مُثنيةً على ضمته وغيرته واصبحت مذ ذاك الوقت نموذجاً حيًّا لامثالها كثيرات من اشراف ملتها

ولعمري من هم الذين يفاخروننا باكتشافاتهم العلمية الجديدة ؟ هم شبّان من ابناء المدارس اللادينيّة . وكم يسوءني ان اردّد هنا ما قاله لي احد ابناء هذه المدارس بينما كنا نتطارح الاسئلة بخصوص ضرورة الدين للعائلة البشرية . . «ضع موسى وعيسى ومحمد بقفّة وغرّقهم في البحر» هذه هي تعاليم المدارس اللادينية شاء الآباء او أبوا . . وهل يرضى اليهودي والمسيحي والمسلم بان يتشرب ابناؤهم هذه المبادئ القتالة التي تنزع منهم كل عاطفة دينية وتؤدي بهم لمهاوي الدمار والفساد ؟

فليحذر ابناء هذا الوطن المحبوب من التعاليم الجديدة من التمدن العصري الذي قوامهُ الخلاعة والتهتُّك عند البعض ممن لا يدينون بدين . وليحذروا تقليد من لا تنطبق حياتهم واطوارهم وعوائدهم على حياتنا واطوارنا وعوائدنا فما احلى واسعد والذ واهنأ عيشة اجدادنا بالحشمة والوقار بالقناعة بالبساطة بالتمسك بعروة الدين الوثقى فانها هي هذه سعادة العائلة البشرية في الحياة الحاضرة والمستقبلة (القديس بولس برسالته الاولى الى تيموثاوس ٤ : ٨)

صورة صك

وصية السعيد الذكر البطريرك مكسيموس مظلوم الاخيرة

تمهيد

اوقفنا احد كهنة الروم الكاثوليك الحليين الافاضل قبل عشر سنوات على اثر جليل للسيد البطريرك المخلَّد الذكر مكسيموس مظلوم ألا وهي وصيَّتهُ الاخيرة التي كتبها في ١٧ ك ١ من السنة ١٨٣٥ وذلك عشرين سنةً قبل وفاته وسنتين بعد ترقيته الى السدّة البطريركيّة على طائفته . وقد بحثنا في كل ما نُشر طبعاً عن ذاك الحبر العظيم لعلّنا نجد في جملة تلك المنشورات اثرًا لهذه الوصيَّة فلم نقف عليها . ومن ثمَّ احببنا نقلها على صفحات مجلّتنا لتبقى كشهادة حيّة